المهـــاجرة

بقلم الاستاذ أحمد سليمان حزين

منشأ الإنسان على الأرض :

اختلف جماعة الجغرافيين فى تحديد موطن الانسان الأول وفى تعيين زمن خلقه ؛ فمنهم من يقول إن الانسان الأول هبط الأرض فى جنوبى شرق آسيا، ويستدلون على ذلك بوجود أقدم جمجمة إنسانية فى تلك الجهات؛ ويقولون إنه خلق فى عصر الميوسين (العصر الجيولوجى الثالث)، أو عصر البلايوسين (العصر الجيولوجى الرابع) ؛ ومنهم من ينكر ذلك ويدلى بآراء أخرى. وسواء أصح هذا أم ذاك، فالثابت أن الانسان الأول نشأ ودرج من جنس واحد، من حيث لون البشرة، وشكل الرأس، ونوع الشعر إلى غير ذلك من الصفات؛ ثم بدأ يدب على سطح الأرض مجتازاً الأودية والسهول، متنقلا من مكان إلى آخر؛ وبذلك تكونت جماعات عديدة خضعت كل منها لتأثير بيئة مخالفة لبيئة الأخرى ؛ ومن هنا نشأ الاختلاف فى الأجناس كنتيجة فى الغالب للعوامل الجغرافية ؛ وقد بدأ هذا الخلاف فى الظهور فى أواخر العصر الجيولوجى الرابع ، أى فى العصر الحجرى الأول .

أنواع المهاجرة وأسبابها :

وإذاً فالمهاجرة ترجع إلى عهد سحيق . ؛ إلا أن الانسان جبل على حب وطنه ، ولذلك كانت الهجرة الاختيارية قليلة الحدوث وقليلة الأثر ؛ ولا تكون إلا حيث توجد المراعى بجانب الأودية الزراعية الغنية بخيراتها، فيطمع الرعاة فى نهب سكان الأودية القليلى الخبرة فى الحروب . ويختلف مصير هؤلاء المهاجرين تبعاً لظروفهم ورغباتهم ؛ فبينما ترى البعض يرجع إلى موطنه الأول، إذ بالبعض الآخر يفضل الاقامة فى البيئة الجديدة حيث يتطبع بطباع السكان الأصليين، يساهرهم ويمتزج بهم الامتزاج الكلى. ولقد كانت مدن الولايات الاغريقية القديمة بأسوارها الضخمة وأبراجها الحصينة، عرضة للنهب والسلب عند ما تغير عليها القبائل التى تقطن سفوح الجبال ، أو عندما تهاجمها جماعات القرصان التى اتخذت الخلجان والمضايق مراكز لها .

والعوامل التى تدفع الانسان إلى مهاجرة وطنه كثيرة ؛ منها عوامل قهرية ؛ كقلة الأمطار فى المراعى ؛ فينتج عند ذلك جدبها وموت الماشية ؛ فيضطر الرعاة إلى ترك أوطانهم التى نشأوا فيها ويصوبون أنظارهم نحو الجهات الزراعية ؛ وقد أثبت التاريخ أن غارات التتر والهون والقوط

على أوربا كانت نتيجة مباشرة لقلة الأمطار بمراعي وسط آسيا .

وقد يكون للعوامل السياسية دخل فى الهجرة، كما حدث فى التاريخ الانجليزى فى عهد الاصلاح الدينى واضطهاد المذاهب المخالفة لمذهب الكنيسة الانجليزية العليا ؛ أو كما حصل بعد الحرب العظمى للروس الذين هالهم الانقلاب الاجتماعى الخطير فى وطنهم فتشتتوا فى سائر دول أوربا وأمريكا، وكهجرة البوير بجنوب إفريقيا حينما كان يطاردهم الرجل الأبيض حتى وصلوا إلى الترنسفال ، أوكهجرة اليابانيين فى كوريا ثم منشوريا أخيراً . وتشجع فرنسا الهجرة إلى ولاية السار حتى تحوز أغلبية تعتمد عليها ضد المانيا.

وللعوامل الدينية أثر فعال فى الهجرة ؛ فمثلا قد أدى اضطهاد قريش للنبى صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة النبوية إلى المدينة ، وكخروج اليهود من أرض الفراعنة . وكثيراً ما يهاجر الانسان لكسب العيش أو بعبارة أخرى للاستعمار الاقتصادى ، كهجرة الاغريق والسوريين واليهود . ويدفع الاستعمار الأمم منذ القدم إلى المهاجرة واستيطان الجهات المغلوبة على أمرها، كهجرة العرب إلى سائر البلاد التى دانت لهم وخضعت لسلطانهم ؛ وكهجرة الانجليز إلى أستراليا وأمريكا الشمالية ، ثم هجرة العنصر اللاتينى إلى أمريكا الجنوبية.

والهجرات التدريجية التى تحصل فى عشرات السنين أهمية كبرى، إذ يترتب عليها نتائج كثيرة فمثلا عندما كثرت الهجرة فى القرن التاسع عشر إلى أمريكا قل عدد سكان المانيا فى الجهات الشرقية ، ونزح إلى تلك الجهات سكان جدد من السلاف بدلا من الألمان المهاجرين لأمريكا .

ويسلك المهاجرون - فى زحفهم - أسهل الطرق وأقصرها ، كأودية الأنهار والسهول ولكنه إذا كانت تلك الأودية مزدحمة بالسكان كانت مقاومتها للمهاجرين عظيمة ؛ أما الرعاة فانهم لا يهاجرون إلا إلى البلاد المجاورة والتى لا تعوقهم أى عقبة فى طريقهم إليها ؛ وبذلك كانت الجبال والبحيرات والغابات والصحارى توقف تيار هؤلاء الغزاة لأنهم ينتقلون بأنعامهم. كذلك وقفت ذبابة (تسى تسى) فى وجه الهجرة والاستعمار فى أواسط إفريقيا ، لأن هذه الذبابة تقتل الحيوانات الأليفة التى لا يمكن للمهاجر الاستغناء عنها ؛ كالأغنام والأبقار والخيل والجمال.

وتقف الجبال حجر عثرة فى سبيل المهاجرين ، إلا إذا وجدت بها منافذ . ويذكر التاريخ أن الرومان قد اخترقوا جبال الألب واستعمروا بلاد الغال ، ومنها وصلوا إلى وسط أوربا وألمانيا ؛ وعن طريق هذه الجبال تمكن نابليون بجيوشه من فتح إيطاليا . ومتى كانت سفوح الجبال تنحدر انحداراً تدريجياً ، فانها تساعد المهاجرين على اختراقها ؛ ولذلك نرى الدول العظيمة تجتهد فى جعل حدودها طبيعية بقدر الامكان ؛ وكنا بعرف ماعانته فرنسا فى سبيل حدودها والنزاع المستمر بينها وبين ألمانيا على منطقتى الألزاس واللورين . وهناك مثلان فى التاريخ القديم يبينان لنا أهمية الحدود الطبيعية ، فكل من الأمبراطورية

المصرية والرومانية جعلت لها حدوداً طبيعية حتى يمكنها صد الغزوات، فامتلك المصريون سوريا وجعلوها حدهم الشرقي، فلما ضعفت الدولة واستقلت سوريا تمكن الغزاة من أن ينزلوا بمصر أفواجاً.

الخطر الأصفر :

وظهر في عالم الوجود في أواخر القرن الماضي ما يسمى بالخطر الأصفر، أو ما يسميه الانجليز « قانون السياسة البيضاء White Policy »، وهي سياسة منع الأجناس الآسيوية من النزول في قارة استراليا، ولاسيما في الجهات الشمالية الكثيرة الخصب والانتاج، والتي لما تستغل حتى الآن، نظراً لأن جوها لا يوافق الجنس الأبيض. ويشدد الانجليز في هذا المنع، لأنه لو سمح للصينيين واليابانيين بالهجرة إلى هناك، لتدفقت سيولهم حتى يأتي يوم يسيطرون فيه على الحكومة وجميع المرافق بحكم الأغلبية؛ وقد حذت الولايات المتحدة حذو أستراليا، فحرمت المهاجرة على العنصر الأصفر، وشددت الخناق على من هاجروا منه من قديم الزمان، ولا تسمح للفرد منهم أن يكون له عقار يطالب به، أو أن يكون له صوت في الانتخاب مهما طالت مدة إقامته؛ وذلك لأنها رأت أن هذا العنصر لا يمكن أن يندمج ويصير أمريكيا ويترك عاداته الشرقية، لدرجة أن الصينيين النازلين بأمريكا يحتفظون بجثث موتاهم حتى ترسل في آخر كل عام لتدفن في أرض أبناء السماء !! فضلا عن أنه لو بقيت الهجرة بلا قيد ولا شرط لكثر المهاجرون وبذلك ينحط مستوى المعيشة، خصوصاً إذا علمنا أن في استطاعة الصيني أن يعيش في اليوم بنصف شلن.

ويستدل على الهجرات بالعوامل الآتية :

١ — اختلاف الجنس والسحنة لسكان دليل على أنهم ليسوا من عنصر واحد، وعلى أن عنصراً منها دخيل والآخر أصيل. وللتمثيل يمكننا مقارنة سكان مصر العليا بسكان السواحل والمناطق الشرقية حيث يكثر الاختلاط.

٢ — الأعمال والآثار والثقافة، وكلها على جانب كبير من الأهمية؛ فالثقافة الرومانية وأثرها الفعال والتي امتد نفوذها حتى القرن العشرين، أكبر دليل على ما بلغه الرومان من سلطة وجاه، بعد أن هاجروا من موطنهم وتدفقوا إلى مستعمراتهم.

٣ — يدل تباين العادات على تباين في الجنس، إذ كثيراً ما يحتفظ المهاجر بعاداته التي نشأ عليها في موطنه الأول، خصوصاً إذا كانت لديه اعتبارات دينية، كالمهاجرين من الصينيين والهنود واليهود.

٤ — كذلك يظهر أثر الهجرات في اللغات؛ يشهد بذلك تأثر اللغة العربية بالفارسية إبان الفتوح الاسلامية، وأيضاً ما طرأ على اللهجات الأوربية الأولى من تغيير عندما انتشر نفوذ الرومان في أغلب أجزاء القارة الأوربية.

أحمد أحمد سليمان حزين
خريج المعلمين العليا